﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٩٨﴾ [التّوبة: 98]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـعـلاقـة بين نـوع شديد من الأعـراب، ونوع آخر يرى الزّكاة مغرما، ويتربّص بالمسلمين

لمّا ذكرَ اللّهُ ﷻ في الآيةِ السّابقةِ أنَّ الأعرابَ أشدُّ النّاس كفرًا، ونفاقًا، وهم أبعدُ النّاس عن فهمِ كتابِ اللّهِ وتطبيقِ أحكامِهِ؛ جاءت هذهِ الآيةُ لتبيِّن أنَّهم ليسوا على نمطٍ واحدٍ، فمنهم من ظهرت عليهِ علاماتُ الشَّرِّ لخبثِ بواطنِهِم، فيرونَ ما يدفعونَهُ من زكاةٍ على أنَّه مغرمٌ وجبَ عليهم أداؤُهُ، قال تعالى في حقِّهم: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا﴾ الآية. وممّا يذكرُ في المناسبةِ أيضًا أنَّه لمّا أثبتَ هذا الوصفَ لهذا الصِّنفِ بيَّن أنَّ أفرادَهُ انقسموا إلى مَن ثبتَ على ما هو الأليقُ بحالِهم، وقِسْمٌ نزعَ إلى ما هو الأليقُ بأهلِ المدَرِ، كما انقسَم أهلُ المدَرِ إلى مثلِ ذلك، وبدأَ بالخبيثِ؛ لأنَّهُ الأصلُ فيهم، فقالَ: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَغۡرَمٗا﴾: الغُرْمُ: الخَسارَةُ والنَّقْصُ، يُقال: غَرِمَ، يَغْرَمُ، غُرْمًا ومَغْرَمًا، أيْ: خَسِرَ ونَقَصَ مالُهُ، وضِدُّه: الغُنْمُ والرِّبْحُ، ويأتي الغُرْمُ، بمعنى: الدَّيْن، والغَرِيمُ: المَدِينُ، وهو الشَّخْصُ الَّذي عليهِ دَيْنٌ، وأصلُ الغُرْمِ: المُلازمةُ، والغَرامةُ: ما يَلزمُ أداؤُهُ، ومنه سُمِّيَ الغَرِيمُ: غَرِيمًا؛ لأنَّهُ يُلازمُ خَصْمَهُ، ويُدِيمُ مُطالبتَهُ بحقِّهِ حتَّى يَقبضَه، ومِنْ معاني الغُرْمِ أيضًا: الضَّمانُ[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/4 - 5.

(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (غرم).

2) ﴿وَيَتَرَبَّصُ﴾: التَّربُّصُ: الانتظارُ بالشَّيءِ، سلعةً كانت يقصد بها غلاءً، أو رخصًا، أو أمرًا ينتظر زواله أو حصوله، يقال: تربَّصتُ لكذا، ولي رُبْصَةٌ بكذا، وتَرَبُّصٌ[1].

3) ﴿ٱلدَّوَآئِرَ﴾: الدّائرةُ اسمُ فاعلٍ، مِنْ دارَ؛ إذا عَكَسَ سَيْرَهُ، فالدّائرةُ تغيُّرُ الحالِ، وغلَبَ إطلاقُها على تغيُّرِ الحالِ مِنْ خَيْرٍ إلى شرٍّ، ودوائرُ الدَّهْرِ: نُوَبُهُ ودُوَلُهُ، قال تعالَى: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾، أي: تَبَدُّلَ حالكُم مِنْ نَصْرٍ إلى هَزيمةٍ[2]، وأصلُ (دور): يدلُّ على إحداقِ الشَّيءِ بالشَّيءِ مِن حوالَيه.

4) ﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾: أي: يحيط بهم السُّوءُ إحاطةَ الدّائرةِ بمن فيها، فلا سبيلَ لهم إلى الانفكاكِ منهُ بوجه[3].

5) ﴿سَمِيعٌ﴾: السَّمِيعُ هُوَ فعيل في معنى فاعل، واللّه تَعالَى سامع وَسميع، وَيَجِيء على قِياس قَول قطرب، أَن يَقُول في سميع: إِنَّه الَّذِي يسمع السِّرَّ وسامع في كلِّ شَيْء، وَيَجِيء في كَلامهم سمع بِمَعْنى: أجاب، من ذَلِك ما يَقُوله الْمُصَلِّي عِنْد رَفْعِهِ من الرُّكُوع: سمعَ اللّهُ لمن حَمده، فُسِّر على أَنَّه بِمَعْنى: اسْتَجابَ[4].

6) ﴿عَلِيمٌ﴾: العَليمُ والعالم صِفتان مُشتقَّتان مِن العِلْم، فالعالم: اسم الفاعل من عَلِم يَعلَم، فهو عالم، والعَلِيم: مِن أبنية المبالغةِ في الوصفِ بالعلم، وهو بمنزلةِ قديرٍ مِن القادر[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

احتسابُ الزَّكاةِ غُرمًا، والتّربُّص بالإسلام وأهله، من أقبح مظاهرِ النِّفاقِ

يُخبِرُ اللّهُ تعالى في هذهِ الآيةِ أنَّ مِن الأعرابِ مَن يحتَسِبُ ما

(1) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (ربص).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (دور)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/233.
(3) الرّاغب، المفردات: (دار).
(4) الزّجّاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 42.
(5) أبو القاسم الزّجّاجيّ، اشتقاق أسماء الله، ص: 50.

يُنفِقُه في الخيرِ غُرمًا وخَسارةً، فيُنفِقُ وهو كارهٌ، لا يرجو ثوابًا عندَ اللّه تعالى، بل ينفقُ للرِّياءِ والسُّمعةِ وطمعًا في التَّقرُّب من المسلمين واتِّقاءِ شرِّهم، ويتربَّصُ بالمُسلِمينَ المصائبَ، وينتظرونَ بهم حوادثَ الأيّامِ واختلالَ الأمورِ، وغَلَبةَ الأعداءِ عليهم، جعَلَ اللّهُ عليهم وَحْدَهم المصائبَ الَّتي تَسوؤُهم، وتُفسِدُ أمورَهم، واللّهُ سَميعٌ عَليمٌ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الواوِ في قولِه: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾:

شروعٌ في ذكرِ صنفٍ آخرَ مِنَ الأعرابِ، لهم صفاتٌ من الفساد أخرى

دلَّتِ الواوُ على عطفِ هذهِ الآيةِ الكريمةِ على ما سبقَ؛ لأنَّها شرحٌ لبعضِ مثالبِ هؤلاءِ المتفرِّعةِ على الكفرِ والنِّفاقِ من المنافقينَ الَّذينَ يعتبرونَ ما ينفقونَهُ في سبيلِ اللّهِ غرامةً وخسارةً عليهم؛ لأنَّهم لا ينفقونَ ما ينفقونَهُ طمعًا في ثوابٍ، أو خوفًا من عقابٍ، وإنَّما ينفقونَهُ تقيَّةً ورياءً ومُداراةً للمُسلمين، لا مساعدةً للغزاة والمجاهدين، ولا حبًّا في انتصارِ المؤمنين.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مِنَ﴾ في: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾:

ذكرُ بعضِ مثالبِ الأعرابِ، الّتي أسهبَ السّياقُ في تفصيلها

آثرَ التَّعبيرَ بـ ﴿وَمِنَ﴾ دونَ بعضٍ؛ لأنَّ ﴿وَمِنَ﴾ تتعدَّدُ معانيها، فهذا تبعيضٌ على سبيلِ التَّصنيفِ، فصلحت لهُ (من)، ولم تكن بعضٌ لتقومَ بالمعنى وحدَها، وهذا التَّعدُّد يثري معنى الآية بخلافِ بعضٍ؛ فإنَّها لا تدلُّ إلّا على معنى الجزئيَّةِ، وهذا قد لا يكونُ الأوفقَ في هذا السِّياق؛ لأنَّ الكلامَ عن صفات جنسِ الأعراب، وليس عن بعضِ الأعرابِ، وعلى هذا فمعنى ﴿وَمِنَ﴾ البيانُ، يؤكِّدُ ذلك ما قالهُ الآلوسيُّ بقولِه: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾، أي: من جنسِهم الَّذي نُعِتَ بنعتِ بعضِ أفرادِهِ، وقيلَ: من الفريقِ المذكورِ، وهؤلاءِ وإن كانوا من جملةِ مُنافقي الأعرابِ، فتخصيصُهم بالتَّقسيمِ هنا منظورٌ فيه إلى ما اختُصُّوا به من أحوالِ النِّفاقِ؛ لأنَّ التَّقاسيمَ في المقاماتِ الخِطابيَّةِ والمجادلاتِ، تعتمدُ اختلافًا ما في أحوالِ المُقَسَّم، ولا يُعبأُ

فيها بدخولِ القسمِ في قَسيمِهِ، فقولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمًا﴾ هو في التَّقسيم[1] كقولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾.

دلالةُ (الْ) في لفظ ﴿ٱلۡأَعۡرَابِ﴾، وأثرها في المعنى:

بيانُ طبيعةِ جنسِ الأعرابِ، الموصوفين بأشنع الصّفات

دلَّتِ اللَّامُ في قوله: ﴿ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ على بيانِ حقيقةِ الجنسِ وماهيَّتِهِ وطبيعتِهِ، بقطع النَّظر عمّا يصدقُ عليه مِن أفرادِهِ، فليسوا جميعًا بهذهِ المثابةِ مِن شدَّةِ الكفرِ والنِّفاقِ والنُّبوِّ عن استماع الكلام الطَّيِّبِ[2].

نكتةُ وضعِ المظهرِ موضعَ المضمرِ:

زيادةُ التَّعيينِ طريقُها الإظهارُ، وذلك من بليغ الاستعمال

آثرَ التَّعبيرَ بالإظهارِ ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ دونَ الإضمارِ للدَّلالةِ على تحديدِهم وتعيينِهم، فلا ينصرفُ الوصفُ إلى غيرِهم من المنافقين؛ لأنَّهُ لو قيلَ: (ومنهم) لذهبَ بعضُهم إلى ربطِهِ بهذا التَّعبيرِ في حديثِ القرآنِ عن المنافقين الَّذين تعدَّد ذكرُهم في هذه السُّورةِ في مواضعَ عديدةٍ، قال تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، ﴿*وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾، ونحو ذلك من الآياتِ، وفيهِ إشارةٌ إلى تحذيرِ المؤمنين من طبيعةِ الأعراب في التَّعاملِ معهم.

بلاغةُ تقديمِ المسند ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾، على المسندِ إليه:

الغرضُ تفصيلُ أنواعِ المنافقينَ، والتّقديمُ تلبيةٌ للغرضِ

الغايةُ من تقديمِ المسندِ هنا العنايةُ بالمتقدِّم لأهميَّتِهِ من جهةٍ، ولبيانِ مكانتِهِ بين أنواعِ جنسِهِ من جهةٍ أُخرى؛ إذ إنَّ تقديمَهُ يُعدُّ شروعًا في تشعيبِ جنسِ الأعرابِ إلى فريقين، وعدمِ انحصارِهم في الفريقِ المذكورِ، فتقديمُ النَّوعِ هو مقصودُ السِّيَاقِ لعنايةِ السِّياقِ ببيانِ الأنواعِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿مَن﴾:

قولِهِ: ﴿مَن يَتَّخِذُ﴾، وفيه عَبَّرَ بـ(مَنْ) دونَ (الَّذي)؛ لأنَّها تفيدُ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/6، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/13.
(2) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/163.

العمومَ، فتشملُ هذا الصِّنفَ مِنَ الأعرابِ، وتشملُ غيرَهم، فكلٌّ من يعدُّ إنفاقَ الزَّكاةِ أو الصَّدقةِ مغرمًا يستحقُّ غضبَ اللهِ وعقوبتَهُ، بخلاف التَّعبيرِ بـ (الَّذي) فإنَّها تصدقُ على مجموعةٍ بعينها، فلا يتحقَّق فيها معنى العموم.

الـصِّـفـاتُ العامَّةُ، كافيةٌ في الكشفِ عن النَّوعِ المقصود

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿يَتَّخِذُ﴾:

قولهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ﴾، وفيه آثرَ التَّعبيرَ بالاتِّخاذِ دونَ الجَعْلِ؛ لأنَّ الجعلَ يُطلقُ بمعنى التَّغييرِ من حالةٍ إلى حالةٍ، نحو: جعلتُ الشَّقَّةَ بَرْدًا، ويُطلقُ بمعنى العَدِّ والحُسبان، نحو: ﴿وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًا﴾ [النَّحل: 91]، وهذا المعنى غير مرادٍ هنا؛ لذلكَ اختارَ التَّعبيرَ بالاتِّخاذِ، لما تحملهُ صيغتُهُ من معنى الاختيارِ والانتفاعِ بما يتَّخذُ باعتبارِ غرضِ المنفقِ من الرِّياء والتُّقيَّة، لا باعتبارِ ذات النَّفقةِ الَّتي يعدُّها غرامةً[1]، وفيهِ إشارةٌ إلى تقبيحِ فعلهم لتنفيرِ أهلِ الإيمانِ من سلوكهم.

اختيارُ المفردةِ، يكون عادةً تابعًا للغرضِ المقصودِ

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مَا﴾ في: ﴿مَا يُنفِقُ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بـ ﴿مَا﴾ الَّتي تفيدُ العمومَ؛ فتشملُ القليلَ والكثيرَ والجليلَ والحقيرَ من النَّفقات وذلك ملائمٌ لبيانِ حالةِ الأعرابِ النَّفسيَّةِ عند كلِّ نفقةٍ ينفقونها سواءٌ كانت النَّفقةُ فرضًا أو نفلًا يعدُّون كلَّ وجوهِ الإنفاق مغرمًا وخسارة، ساعد على ذلك التَّعبيرُ بلفظِ ﴿مَا﴾ الَّذي يصدقُ على جميعِ وجوهِ الإنفاقِ.

من عدّ الإنفاق مَغْرمًا وخسارة، لم ينل أَجْرًا، ولا حاز جدارة

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يُنفِقُ﴾:

آثرَ التَّعبيرُ القرآنيُّ استعمالَ صيغةِ المضارع (ينفق) لإثباتِ سلوكِ المنافقين المتجدِّدِ في إنفاقِهم، إذ يعدُّونَ كلَّ ما ينفقونَهُ غرامةً وخسارةً عليهم، فهو واقعٌ منهم، وسيبقى مُستمرًّا معهم.

حسرةُ المنافقِ متجدِّدَةٌ مع كلِّ نفقةٍ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/95، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/13.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿مَغْرَمًا﴾:

نِيّاتُ المنافقين خبيثةٌ، وتفسيرُهم العمليّ كاشفٌ سوءَها لا محالة

آثرَ التَّعبيرَ بقولِه: ﴿مَغْرَمًا﴾؛ لأنَّ الغرامةَ هي المالُ الَّذي يدفع في غيرِ مقابلٍ، وأصلُ الغرامِ: الشَّيءُ الملازمُ، وأطلق على المَدين (الغارم)؛ لأنَّهُ ملازمٌ دائمًا من الدّائنِ، وهؤلاءِ الأعرابُ يعدُّون ما ينفقونَهُ من زكاةٍ مفروضةٍ (غرامة)، وينتظرونَ أن ينخلعوا من هذا المالِ المفروضِ عليهم؛ لأنَّهم لا يؤمنونَ بوجوبِه؛ لأنَّهم لا إيمانَ عندهم يلزمُهم بها[1].

نكتةُ تنكيرِ ﴿مَغْرَمًا﴾:

التَّقليلُ من شأنِ نفقةِ المنافقينَ، لعروّها من النّية الصّالحة، والفقه السّديد

أفادَ تنكيرُ ﴿مَغْرَمًا﴾ في الآيةِ معنى العُموم ليشملَ كلَّ ما أنفقوهُ، وفيه إشارةٌ إلى التَّقليلِ من شأنِ نفقاتِهم؛ لأنَّهم لا ينفقونها احتسابًا ورجاءً لثوابِ اللهِ تعالى ليكونَ لهم مغنمًا، وإنَّما ينفقونها رياءً وتقيَّةً، فهي غرامةٌ محضةٌ[2].

دلالةُ الواوِ في: ﴿وَيَتَرَبَّصُ﴾:

تربُّصُ المنافقين بالمؤمنين، في الظّاهرِ والباطنِ، من أخطر الكيد والتّآمر

آثرَ التَّعبيرَ بالواوِ دونَ غيرِها في قولِه: ﴿وَيَتَرَبَّصُ﴾ لاحتمالِها أكثرَ من معنًى، فتكونُ للحالِ، فهي تصوِّرُ حالَ تربُّصِ الأعرابِ المنافقين بالمؤمنينَ للإيقاعِ والغدرِ بهم، حالهُم في هذا كحالِ الوحوشِ المفترسةِ الَّتي تتربَّص بفريستها لتقضي عليها، ويجوزُ أن تكون الواوُ عاطفةً، فيكون الفعلُ ﴿وَيَتَرَبَّصُ﴾ داخلًا في حكم الصِّلةِ، فيجمعُ لهم اعتبارَ الزكاةِ مغرمًا والتَّربُّصَ بالمؤمنين؛ لذلك جازَ العطفُ للاشتراكِ بينهما في صفةِ السُّوءِ.

دلالةُ الباءِ، في قولِه: ﴿بِكُمُ﴾:

سلوكُ المنافقينَ انعكاسٌ لواقعِهم

الباءُ للسَّببيَّةِ، كقولِه تعالى: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطّور: 30]، وجعلَ المجرورَ بالباءِ ضمير المخاطبين على تقديرِ مُضافٍ،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3423.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/95.

والتَّقديرُ: ويتربَّص بسببِ حالتِكم الدَّوائرَ عليكم، لظهورِ أنَّ الدَّوائر لا تكونُ سببًا لانتظار الانقلابِ، بل حالهم هي سببُ تربُّصِهم أن تنقلبَ عليهم الحالُ؛ لأنَّ حالَتهم الحاضرةَ شديدةٌ عليهم[1].

علَّةُ تقديمِ شبهِ الجملةِ ﴿بِكُمُ﴾:

الاهتمامُ بالمؤمنينَ، وتحذيرُهُم من خطرِ المنافقينَ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿بِكُمُ﴾ للتَّخصيصِ والاهتمامِ، فالاهتمامُ منصبٌّ على المؤمنين دونَ غيرِهم؛ لأنَّهم المقصودونَ بالخطابِ خاصَّة، ولو لم يكنْ كذلكَ لقدَّم المفعولَ بهِ ﴿ٱلدَّوَآئِرَ﴾ عليها، كما أنَّ في دلالة هذا التَّقديم تحذيرًا وبيانًا من خطرِ المنافقين على المؤمنين.

علَّةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱلدَّوَآئِرَ﴾:

دِقَّةُ التَّصويرِ في استعمالِ المفردةِ القرآنيَّةِ الفصيحة

آثرَ التَّعبيرَ بالدَّوائرِ دونَ المصائبِ؛ لأنَّ الدَّوائرَ في معناها أحكمُ وأبلغُ، حيثُ تعبِّر عن إتيان جميعِ المصائبِ من كلِّ جانبٍ، كأنَّها تدورُ معهم أينما ذهبوا، وتتعاقبُ عليهم؛ لأنَّ الدائرةَ اسمٌ للمُصيبةِ، وهي في الأصل مصدرٌ كالعاقبةِ، أو اسم فاعل من (دار)، فهم ينتظرونَ المصائبَ الَّتي تحيطُ بالمسلمين كما تحيطُ الدّائرة، وذلك من بابِ التَّجسيمِ المعنويِّ على الاستعارةِ، وهو ممّا يعمِّقُ المعنى في النَّفس[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالجمعِ ﴿ٱلدَّوَآئِرَ﴾:

ترقُّبُ هزيمةِ المؤمنينَ من أحلامِ المنافقينَ

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالجمعِ (دوائر)؛ للمبالغةِ في ترقُّبِ المنافقينَ لهزيمةِ المؤمنين من أيِّ جهةٍ سواءٌ بموتِ رسولِ اللّه ﷺ أو بهزيمتهم في معركةٍ من المعارك أو بنوائبِ الدَّهر ودوائرِه لتذهبَ غلبةُ المسلمين، فيتحلَّلون من تلكَ النَّفقاتِ المفروضةِ عليهم، وبالفعلِ انتظروا حتى توفِّي رسولُ اللّه ﷺ فحسبوها فرصةً، فارتدُّوا، ولكنَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/14.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/14، وعبد الفتاح لاشين، لغة المنافقين في القرآن الكريم، ص: 192.

اللّهَ كبتَ كيدَهم، وقاتلهم أبو بكرٍ ﷺ ودفعوا الزَّكاة صاغرينَ أمامَ سيفِ اللّه خالد بن الوليد[1].

سرُّ المغايرةِ بالتَّعبيرِ بـ ﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾، مقابل ﴿ٱلدَّوَآئِرَ﴾:

المتأمِّلُ لأسلوب القرآنِ الكريم، في تصويرِ ما امتلأتْ بهِ نفوسُ المنافقين من أحلامِ التَّرقُّبِ لهزيمة المؤمنين، ومن كثرةِ أمانيهم في ذهابِ دولةِ الإسلام، عبَّرَ القرآنُ عن ذلك بكلمةٍ جامعةٍ ﴿ٱلدَّوَآئِرَ﴾، وهي تنبئُ عن كلِّ ما سبقَ منهم، وتشيرُ إلى ضعف إمكاناتِهم مهما بلغت أمامَ قوَّةِ اللّهِ؛ لذلكَ جاءَ ردُّ اللّهِ تعالى عليهم بالإفرادِ مبالغةً في شدَّةِ الإهلاك، حيثُ يكونُ هلاكُهم بدائرةٍ واحدة، وهي دائرةُ السَّوءِ الَّتي لا نجاةَ معها، فاجتمعَ في الآيةِ من التَّناسبِ الدَّقيقِ في المقابلةِ، ممّا يشهدُ بإعجازِ النَّظمِ الحكيم.

المنافقون يهلكون بدائرة السّوء، وذلك لضعفهم أمام قدرة الله

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾:

في قولهِ تعالى: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ استعارةٌ تبعيَّةٌ؛ حيثُ شبَّهَ النَّوائبَ والمصائبَ الَّتي تُصيب الإنسانَ بالدّائرةِ الَّتي تكونُ حولَ الشَّيء؛ لأنَّ الدّائرةَ تُستعمل حقيقةً في الإحاطة بالأشياء، لكنَّها استعملت هنا في نوائبِ الدَّهرِ ومصائبهِ الَّتي تُحيط بالإنسان من كلِّ الجوانب؛ كإحاطة الدّائرة بالشَّيء، أو هي تَغَيُّر الحال من الاستقامة إلى الاختلالِ، والجامع بينهما هو الإحاطة والشُّمول، فحصلت المبالغةُ في إدخال المُشبَّه في الأذهان، مختصر العبارة[2]. الدَّوائر: جمعُ دائرةٍ، وهو ما يحيطُ بالإنسان من مصائبَ ونكباتٍ، كما تحيط الدَّائرةُ بالشَّيء الَّذي بداخلها.

الإحاطةُ والشُّمولُ، من ميزات السّياق في هذه الآية الكريمة

الغرضُ من أسلوبِ الاعتراضِ ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾، في السّياق:

قولُهُ: ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾، هذه الجملةُ معترضةٌ بين جمل

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3423.

(2) الشّريف الرّضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص: 62 - 63.

حديث القرآنِ عن الأعرابِ؛ لأنَّها دعاءٌ عليهم، ولذلك فُصِلت عمَّا قبلَها، فهي اعتراضيَّةٌ دعائيَّةٌ خبريَّةٌ لفظًا إنشائيَّةٌ معنًى من بابِ قولِه تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [المائدة: 64]؛ لأنَّ اللهَ لا يدعو على مخلوقاتِه؛ لأنَّها في قبضتِه أو أنَّها من بابِ دعاءِ المسلمين، أي: قولوا: عليهم دائرةُ السُّوءِ، ومن الممكن أن تكون اعتراضيَّةً خبريَّةً على بابِها

التَّعجيلُ بالدُّعاءِ عليهم، إيذانٌ بمعيَّةِ اللهِ للمؤمنينَ وتأييدِه لهم

فتكونُ بيانًا بحقيقةِ حالهم، أي: عليهم تدورُ المصائبُ والحروبُ الَّتي يتوقَّعونها للمسلمينَ، وهذا إخبارٌ للمسلمين بما سيؤولُ إليهِ أمرُ الأعرابِ المنافقين ومآلُ الاحتمالين واحدٌ؛ لأنَّ الخبرَ في كلامِه تعالى حقٌّ، ومضمونه كمضمونِ الدُّعاء واقعٌ لا محالةَ[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ(على) في قوله: ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۚ﴾:

بيان استعلاء العذابِ، وتمكُّنُه من الأعرابِ المنافقينَ

عبَّر بـ (على) في قوله: ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۚ﴾؛ لأنَّها تفيدُ الاستعلاءَ، وفيها معنى قوَّة العذابِ وتمكُّنه منهم، فلا يستطيعونَ الفرارَ منه، وما قصدتموهُ - أيُّها المنافقونَ من الأعرابِ - من التَّربُّصِ بالمؤمنين، وانتظارِ وقوعِ الشَّرِّ بهم، سينعكسُ عليكم، وسيقعُ بكم، ويتمكَّنُ منكم.

غرضُ تقديمِ شبهِ الجملةِ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

حصرُ دائرةِ السَّوءِ عليهم، في السّياق

تقديمُ (الخبر) شبهِ الجملةِ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ أفادَ الحصرَ والتَّخصيصَ، أي: إنَّ اللهَ تعالى جعلَ دائرةَ السَّوءِ عليهم وحدهم دونَ المؤمنين؛ لأنَّ الاستعلاءَ أجدرُ بالإحاطةِ والإحكامِ، فهو أقوى من كونهم محصورين في دائرةٍ مطبقةٍ عليهم لا ينفكُّون منها، وفي هذا تحقيرٌ لهم وتهوينٌ من شأنِهم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/14، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 9/5440، وعبد الفتّاح لاشين، لغة المنافقين في القرآن الكريم، ص: 193.

نكتةُ إضافةِ الدَّائرةِ للسَّوءِ:

دائرةُ الدَّهرِ لا تُستعملُ إلَّا في المكروهِ

وأُضيفَتِ الدّائِرةُ إلى السَّوءِ الَّتي هي في الأصلِ مصدرٌ أو اسمُ فاعلٍ، مِن دارَ يَدورُ، وسُمِّي به عاقبةُ الزَّمانِ (أي: حادثته) للمُبالَغةِ، مِثلُ: رَجُلُ صِدْقٍ، وقيلَ: معنى الدّائرةِ يَقتَضي مَعنى السَّوْءِ، وإنَّما هي إضافةُ بيانٍ وتأكيدٍ، كما قالوا: شَمسُ النَّهارِ، قال أبو علي الفارسي: لو لم تُضَفِ الدّائرةُ إلى السَّوء لعُرِفَ منها معنى السَّوء؛ لأنَّ دائرةَ الدَّهرِ لا تُستعملُ إلّا في المكروه[1].

دلالةُ القراءاتِ المتواترةِ في لفظ: ﴿ٱلسَّوۡءِۖ﴾:

تنوُّعُ القراءاتِ ثراءٌ للمعنى، وتوسيع للدّلالة

في لفظِ ﴿ٱلسَّوۡءِۖ﴾ قراءتان متواترتانِ: إحداهما بضمِّ السِّينِ، وهي المصدرُ بمعنى ما يسوؤهم، فالدّائرةُ نازلةٌ ومقبلةٌ، ولكنَّها ليست على المؤمنين، بل على المنافقينَ من الأعراب، ولذلك هزمَهم الصِّدِّيق رضي الله عنه وخَضَدَ شوكتَهم. ثانيهما: بفتحِ السِّين، والمرادُ بالسَّوء: الضَّررُ والفسادُ، ولا تعارضَ بينهما، فمعنى القراءتين أن يصيبَ الأعرابَ نكبةٌ تفجعُهم، وتسوؤهم، وعاقبة ذلك مضرَّةٌ شديدةٌ عليهم بتشريدِ جمعهِم وتفريق أمرهم[2].

بلاغةُ المشاكلةِ في سياقِ الآية الكريمة:

الجزاءُ من جنسِ العملِ، وكما يدين الفتى يدان

قوله تعالى: في جملتَيْ: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾ و﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾؛ وفيه أنّ المشاكلةُ بين الجملتينِ من حيثُ اللَّفظُ لا من حيثُ المعنى، على أنَّ استعمالَ هذا اللَّفظِ في الشَّرِّ أكثرُ، لا سيَّما من أعداءِ اللهِ، فإذًا لا يكون مُطلقًا؛ لأنَّ قوله: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾ لا دعاءَ فيه، بل هو إخبارٌ، اللهم إلّا أن يُقال: إنَّ مَن تربَّص بغيرِهِ السُّوءِ لا يخلو من الدُّعاءِ عليه[3].

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/95، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/74، والقنّوجيّ، فتح البيان: 13/91، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/14.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3424.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/334.

سرُّ عدمِ ذكرِ لَفظِ السُّوءِ مع الدَّوائِرِ، وذكرِهِ في ﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۚ﴾:

العنايةُ بالمؤمنينَ بحذفِ ما يسوؤُهم، وينغّص عليهم

قوله تعالى: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾، وقوله تعالى: ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۚ﴾، نجد أنّ النّاظِر في تركيبِ الجملتينِ على هذه الشّاكلةِ يجدُ عدمَ ذكرِ لفظِ السُّوءِ، في قوله: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾؛ لأنَّها خطابٌ للمؤمنينَ، وفي هذا بشارةٌ للمُخاطَبِ المخصوصِ بالعناية والتَّكريم، فيكونُ العُدولُ عن التَّصريحِ باللَّفظ المنفِّر دفعًا له عن المؤمنينَ، وصَرفًا لمعنى التَّنفير إلى التَّبشير، بخلافِ كلمةِ ﴿دَآئِرَةُ﴾ المفردةِ في موضعِ المنافقين، فصرَّحَ بلفظِ السُّوءِ ليلحقَ بالمنافقين خاصَّةً.

دلالةُ تصديرِ ختامِ الآيةِ، بلفظِ الجلالةِ ﴿وَٱللَّهُ﴾:

تصديرُ الكلامِ بلفظِ الجلالةِ، يملأُ القلبَ مهابةً وخضوعًا له تعالى

صُدِّرتِ الجملةُ ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ بلفظِ الجلالةِ؛ لتربيةِ المهابةِ في نفوسِ القارئين والمستمعين، وملءِ القلوبِ بمراقبةِ الله تعالى.

نكتةُ التَّذييلِ بالاسمينِ الجليلينِ ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾:

التَّهديدُ والوعيدُ بما يترتَّبُ على معنى الاسمين الجليلين

خُتِمَتِ الآيةُ بصفتي السَّمعِ والعِلم؛ لأنَّ المقامَ يقتضي قولًا منهم بما يتناجونَ بهِ، وما يدبِّرونه من التَّرصُّدِ، وهذا مُتعلَّقُه السَّمعُ، فيسمعُ ما تتحدَّثُ به نفوسُهم، وما تهمسُ به أفئدتُهم، وعليمٌ بما يكتمونَهُ، ومحلُّه القلبُ، وهو ما يبطنونَهُ، ويقصدونَ إخفاءَهُ، ومتعلَّقهُ العِلمُ؛ لأنَّ ما في القلبِ لا يُسْمَع، ولا يُرْىَ، وإنَّما يُعلَمُ علمًا، ولذلك فهو سبحانَهُ سميعٌ لما يقولون، وعليمٌ بما يكتمونَ في قلوبِهم من الحقدِ والكيدِ[1].

نكتةُ التَّقديمِ لـ ﴿سَمِيعٌ﴾، في سياقِ الآيةِ الكريمة:

تقديمُ الأسماءِ والصِّفاتِ، تتناسبُ مع الدّلالاتِ في السّياقات

قَدَّمَ وصفَ ﴿سَمِيعٌ﴾ على ﴿عَلِيمٞ﴾ لتقدُّمِ مُتَعَلِّقِهِ، وهو ما يتناجونَ بهِ، وما يدبِّرونَهُ من التَّرصُّدِ.

نكتةُ تنكيرِ الأسماءِ الجليلةِ، في الفواصلِ الجميلة:

الحديثُ هنا عن الأعرابِ، وهم سكَّانُ البادية، وقد خُتِمَتِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/14، وعبد الفتّاح لاشين، لغة المنافقين في القرآن الكريم، ص: 193.

الآياتُ باسمين، أوَّلهما: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، ثم: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، وأخرى: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وكلُّ هذه الأسماءِ جاءت مجرَّدةً من (أل)، ويُفهم من ذلك أنَّه إذا عُرفت الجهةُ المتحدَّثُ عنها، وكانت لها ما لها من مواقفَ مع المسلمين، فلا بدَّ أن يأتي الاسمان في الفاصلةِ القرآنيَّةِ على هيئةِ التَّنكيرِ، وذلك من وجوهٍ:

الفواصلُ القرآنيَّةُ، هي معجزةٌ في معانيها الدّلاليّة

أوَّلُها: عدمُ مماثلةِ الفئةِ المتحدَّثِ عنها، وهي: (الأعراب) مع المسلمينَ، فليسوا جميعًا سواءً، فمنهم المؤمنُ، ومنهم الكافرُ والمنافق، فتنكيرُ الأسماءِ جاءَ مناسبًا مع حالهم.

وثانيها: أفعالهم، أي: (الأعراب) فلقد جاءتِ الأسماءُ المؤيدةُ لمعنى الفعل، أعني: النكرة؛ لأنَّ الآياتِ الَّتي سبقتها كانت في معرضِ استنكارِ فعلِ (الحلف)، قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، واللّهُ سميعٌ لحلفهِم الكاذبِ، وعليمٌ بسرائرِ نفوسِهم.

ثالثها: عليهم دائرةُ السَّوءِ، وتلك صفةٌ ملازمةٌ، كأنَّها أحاطتْ بهم، فلا خلاصَ منها، وهي صفةٌ غالبةٌ، فيها من التَّأكيد ما فيها، ولقد جاءتِ الأسماءُ على هيئةِ التَّنكيرِ تأكيدًا لصفاتهِم الَّتي أحاطتْ بهم كالدّائرةِ.

بلاغةُ التَّرصيعِ في الفاصلةِ:

القرآنُ الكريمُ أسلوبٌ بديعٌ، وإيقاعٌ فريدٌ

في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فاصلةٌ مُرصَّعةٌ، حيث اتَّفقتِ الفقرتانِ في الوزنِ والحرفِ الأخيرِ، وهذا الأسلوبُ البديعُ يُخرج الآياتِ عن رتابتها، ويزيدُها حسنًا مع حسنها، فتكونُ أكثرَ تأثيرًا، وأشدَّ جذبًا للقارئِ والسّامِع، فيُصغي لها، ويتدبَّرُ معانيها، وهو مقصودُ التِّلاوةِ الأكبرُ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّربُّصُ والانتظارُ:

التَّربُّص انتظارٌ طـويـل، مع ترقُّب وملاحظة، والانتظار يطلقُ على زمنٍ قصيرٍ أو طويلٍ

فرَّق العسكريُّ بين التَّربُّصِ والانتظار بأنَّ التَّربُّصَ طولُ الانتظارِ، يُضاف إلى ذلك أنَّ التَّربُّص انتظارٌ مع ترقُّب وملاحظة[1]، وقد آثرَ النَّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالتَّربُّصِ دونَ الانتظارِ لوجودِ فرقٍ بينهما، فالتَّربُّصُ هو طولُ الانتظارِ، ومن ثَمَّ يسمَّى المتربِّص بالطَّعامِ وغيره: متربِّصًا؛ لأنَّهُ يطيلُ الانتظارَ لزيادةِ الرِّبحِ؛ بخلافِ الانتظارِ، فيطلقُ على الزَّمنِ القصيرِ والطَّويلِ.

وفيهِ إشارةٌ إلى كشفِ موقف الأعرابِ المنافقين منَ المؤمنينَ، فهم يقفونَ موقفَ المتربِّص المنتظرِ حلولَ المصائبِ بهم، وفيه إشارةٌ أيضًا إلى طولِ زمنِ التَّربُّص من المنافقينَ بالمؤمنينَ بأن تحيقَ بِهِم دوائرُ السُّوء، فطولُ انتظارِ المنافقين ناسبَهُ التَّعبيرُ بالتَّربُّص الَّذي يفيدُ طولَ الانتظارِ من المنافقينَ من أجلِ الشَّماتةِ بالمؤمنينَ.

(1) العسكري، معجم الفروق اللّغوية، ص: 112.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 18 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-15-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 18 : المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-15-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0758707 بتاريخ 2024/01/31م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»